قصص فرعونية :

٣ ـ قصـــة سينوحيت

لأديب مصري قديم

الأستاذ محمد خليفة التونسي

[ملخص ما نشر في العددين ٦٦٣ و ٦٦٦]

[أشرك ملك مصر أمنمحت الأول قبل وفاته بعشر سنوات ، ابنه وولي عهده أسرتسن الأول في حكم مصر ، وكان أسرتسن يقوم بقيادة الجيوش في حملاته على البلاد الخارجية ، بينما يبقى أبوه في العاصمة لتدبير شئون مصر .

« في إحدى حملات أسرتسن على ليبيا كان يرافقه بطل القصة سينوحيت الذي كان حافظ أختام الملك ونديمه ومستشاره والقيم على شئون الغرباء في مملكته ، وبينما الجيش عائد إلى العاصمة من الغرب جاء رسول من القصر إلى أسرتسن ينعى إليه أباه سراً ، وسمع سينوحيت بنعيه فقرر الفرار من الجيش ومصر جميعاً لأنه رأى في بقائه في مصر خطراً على حياته ، بعد موت أمنمحت واستبداد أسرتسن بالأمر فيها ، فاختفى في أحد الحقول حتى مر الجيش على مكمنه دون أن يراه أحد ، ثم سار إلى سنفرو ثم الجيزة ، ثم عبر النيل إلى الشرق على طوف وجده هناك حتى وصل الجبل الأحمر ، ثم سار إلى الشمال مجتازاً مسلحة عند عين شمس كانت تحمي مصر من غارات الأسيويين ، ثم انحدر في وادي كبور (طوميلات في إقليم الشرقية) وفيه كاد يهلك ظمأ لولا أن عثر عليه رجال من الساتي (بدو آسيا) فعرفه أحدهم وأنقذوه وأصافوه أياما عندهم ، ثم رحل إلى أدوم فبقي فيها نحو سنة أشهر ، ثم دناه أحد أمراء فلسطين إليه فلبى دعوته ، وهناك سأله الأمير عن سبب هربه فلم يجبه جوابا يطمئن إليه ، وحاول الأمير أن يعرف منه أحوال مصر ، وأثار ريبته في موتها بعد موت أمنمحت وتولية أسرتسن ، ولكنه أجابه بأن مصر لم تضعف بل زادت قوة بتولية أسرتسن ووصفه له وصفاً يدل على بلاغة وإخلاص ، وكان وصفه جامعاً بين أبلغ الترغيب في الملك والترهيب منه ، فأقطعه الأمير أرضاً وولاه ولاية يحكمها وزوجه كبرى بناته فأنجبت له كثيراً من الأبناء الذين صاروا رؤساء للعشائر في الولاية التي يحكمها أبوهم من قبل الأمير ، وولاه الأمير قيادة جيشه فأبلى في مكافحة أعدائه البدو وتأمين بلاده خير بلاء ثم جرت بينه وبين أحد البدو مبارزة انتصر فيها على البدوي وقتله واستحوذ على أمواله ، وقد وقعت هذه المبارزة (١) في آخر المدة التي أقامها هناك والتي تزيد على عشرين سنة ، وقد رأى بعدها أن موقفه دقيق حرج في اغترابه ، فاستكثر من الأموال لتكون له عوناً عند البلاء ، كما أرسل إلى ملك مصر رسالة يلتمس فيها أن يأذن له بالعودة إليها بعد أن صار شيخاً ضعيفاً ، ويصف له كيف كان في أول اغترابه بائساً وحيداً ثم كيف صار ساكا هو وأبناؤه والذين أنجبهم على إحدى ولايات فلسطين وعشائرها ... وهذه بقية الرسالة والقصة ...]

« أو لم يأن لي أن يصفح مولاي عن جريمة هربي ، فأعود إلى وطني ، وأسترد مكانتي في البلاط ، وأحظى بالعيشة الراضية في تلك البقعة المباركة التي تركت فيها قلبي . إنه لا سعادة لي إلا بأن أرجع إلى تلك البقعة حيث ولدت ونشأت ، ثم أموت وأدفن هناك ، فما أسعد من يقضي نحبه في بلد ولد ونشأ فيه ! لشد ما تحملت — يا مولاي — في غربتي من آلام ! وطالما صبت نفسي إلى أن أراني في وطني مرة أخرى لأنعم في جنباته بالراحة والسلام ، وما أكثر ما قدمت من القرابين للآلهة علها تنظر آلامي وتحقق آمالي . حبذا لو تكرم فرعون مصر العظيم فشملني بعطفه ، ومكنني من أنعم بإحسانه ، وأتقدم بولائي إلى ربة قصره ، وأقف على حالها وحال بنيها وبناتها . إذن لرد مولاي إليّ بذلك شبابي الضائع ، فهأنذا أشعر بالشيخوخة تسعى إليّ ، والخور يتسرب في كياني ، والكلال يرين على عينيّ ، والاضمحلال يدب في رجليّ ، والفتور يتغلغل في عروقي ، والبطء ينتاب نبضات قلبي .

ويحي ! فإن المنية القاسية لتسعى إليّ لتختطفني ، وما أوحى ما تقذف بي إلى الهاوية الأبدية ، فهلا يتاح لي أن ألحق بسيدة القصر سلطانة العالمين ، فأجد راحة الموت على يديها » .

لم يمض بعد ذلك وقت طويل حتى أتاني جواب الملك المعظم وقد حقق آمالي وما فوقها ، فقد عفا عني وسمح لي بالعودة إلى وطني ، وولاني ولاية من قبله في الخارج ، كما أتحفني بكثير من الإتاوات ، وأرفقها بتحية أولاده ، وها هو ذا أمره الملكي

(١) هذه المبارزة تشبهها شبها قويا مبارزة وقعت في فلسطين أيضا بين سيدنا داود وجبار من فلسطين يسمى جليات (في القرآن الكريم جالوت) بعد أكثر من ألف سنة من سينوحيت ذكرها العهد القديم : الأنبياء : صموئيل الأول : الاصحاح ١٧ الفقر ٤ — ٥٤ والقرآن : سورة البقرة : الآيات ٢٤٩ — ٢٥١ .

الكريم : « من حورس بن رع صاحب التاجين ، وحاكم مصر العليا والسفلى ، وروح النسل ، ومانح الحياة ، والخالد على مر الدهور . الأمر الملكى العالى الموجه إلى الشريف سينوحيت لإعلامه بما رأى جلالة الملك فيما التمس منه .

هأنتذا قد فررت من الدلتا إلى أصقاع أجنبية ، وارتحلت من أيدوم إلى نمو ، وجست خلال بلاد شتى طوعا لما جال بخاطرك فتأمل ، ويحك ، ما أداك إليه طيشك !

لست أدرى ماذا حملك على هذه الهجرة ، وأنت لم تجترح جرما ، ولم تحتكم إلى مجلس الأشراف لتسمع حكمه فيك . إنها أوهامك الكاذبة التى دفعتك إلى تلك الهجرة .

ولقد كان ما كان من أمرك على ما علمنا وعلمت ، فلا تتحول عما أزمعت من الرجوع إلى وطنك بعد أن وضح لك المذهب السوىّ ، كما أن مولاتك الملكة لا تزال تتألق فى القصر على غاية من الرغد والعافية ، وقد نما أولادها وصاروا زينة القصر ، واتخذوا منازلهم فى القصر ، وقد ابتهجت الملكة وأولادها بنبأ مقدمك حين نُمِى إليهم ، وسيسعدهم أن يجزلوا لك الهبات ، وأن يرعوا حقوقك . ولتثق أنك ، عند عودتك إلى القصر الذى فيه نشأت ستكون حيث يليق بك ، فدع كل ما فى يديك ، وعد إلينا بنفسك ، حتى إذا بلغت مصر فاجعل وجهتك القصر المعظم فإنك ستكون فيه زعيما على أندادك مرة أخرى .

هأنتذا تشعر بالشيخوخة تدب إليك ، والضعف يحترم قواك وقد صار التفكير فى دفنك بعد موتك يقلق فكرك ، ويعذبك . لا تجزع فإنك ستعود إلى الوطن المقدس ، حتى إذا حان حَنْطُك زمّلوك بلفائف الكتان ، وصبوا عليك الزيت حَنُوطا ، ووضعوك فى نعش مُذْهَب قد طلى رأسه بطلاء لازوردى ، وغطى بغطاء فى شكل السماء ، وعندما تشيع جنازتك ستجرها الثيران ، وبين يديها المرتلون يُردِّدُون أمامك أناشيدهم ، وإذا ما أنزلت فى قبرك — حيث يقبر أبناء الملك — رقصوا أمامك رقصة الدفن ، وقام النائحون يجأرون بصلواتهم ومراثيهم لتأبينك ، ونحت القرابين على روحك ، وشيد فوق قبرك هرم من الرخام الناصع .

هذا ما ستكون عليه شعائر دفنك فى وطنك بين أهلك ، ولن تموت كما تحتى فى أرض أجنبية فيلفك الأسيويون فى أديم شاة ، ثم يشيعونك وهم يدقون الأرض ، ويبكون على جثتك إلى أن يغيبوك فى لحدك وعليك أن تبادر إلينا بالرجوع » .

كنت مجتمعا برجال قبيلتى حين أتانى الجواب ، وما كدت أستوعبه حتى خررت على وجهى ، وعفرت بالتراب رأسى ، ولم أتمالك نفسى أن أقفز وأن أطوف بفسطاطى ، وأصيح قائلا : « عجبا لى ! كيف أجاب إلى ما طلبت ، وما أنا إلا تابع تمرد على سيده ، وأبق من وطنه مهاجرا إلى أقطار أجنبية . لشدّ ما أجد من غبطة بعد أن عفا مولاى عنى وأذن لى أن أرتد إلى وطنى آمنا على حياتى ، ولأقيم فى بلاطه عالى الشأن راضى المعيشة إلى أن يوافينى أجلى » .

ولم ألبث أن كتبت إلى مولاى هذا الكتاب ، قدمته بين يدى رحيلى إلى وطنى : « إننى خادمك سينوحيت ، أتقدم إلى جلالتك بخشوعى وولائى وتحياتى ، ملتمسا العفو عما جرته علىّ حماقتى حين أبقت من مصر ، وإنك لرب المغفرة أيها الإله النبيل المهيمن على العالمين ، وإنى لأتوسل إلى رع وحورس وهاتور وسائر الأرباب العظام أن تهبك الخلود ، وتلهمك الحكمة والسداد فى كل خطاك ، وتكفل لك الأمن والسلام ، وتغدق عليك نعمها ظاهرة وباطنة ، وتبسط سلطانك على الصحراء ، وتمده على كل ما تطلع عليه الشمس من السهول والحزون .

لقد أسبغت نعمك علىّ أيها الإله الجليل كما يسبغ رع نعمه على مريديه ، وقد اطلعت على ما حاك فى صدرى فشملتنى برحمتك وهديتنى من ضلال ، وآويتنى من اغتراب . وإنه ليحلو لى أن أعيد ما كتبته يا مولاى إلىّ من روائع حكمك وآيات بلاغتك ، وما كنت إلا خادما تافها لا يستحق شيئا من هذه النعم ولا بعض هذا الاهتمام ، لولا أنك — فى جلالك ورحمتك — كالإله العظيم حورس تظلل برعايتك جميع رعيتك .

ولقد ظللت لك — يا مولاى — التابع الأمين الوفىّ فى كل ما قلت وفعلت ، وإن أمراء هذه الجهات شهداء على ما أقول

وحسبك يامولاى أن كل السكان هنا ينظرون إلى جلالتك فى خضوع الكلاب الوفية ، ما تبدلت عواطفى نحوك ، وما كانت هجرتى إلا رؤيا حالم فى الشمال بأنه قد صار فجأة فى أبو (قريب أسوان شمالا) أو رؤيا حالم من جيرة الوادى فى الجنوب بأنه رحل إلى مستنقعات الشمال ، فأنا لم أجن ذنبا أخشى مغبّته ، ولم أدنس أذنى بالإصغاء إلى الأشرار ، ولم يلهج باسمى لسان فى مجامع القضاء ، وما فتئت فى غربتى أرفع ذكرك وأشيد بعظمتك ، وما كانت هجرتى من مصر نظاما مدبرا ؛ بل خاطرا فطيرا مرتجلا تلجلج فى صدرى فانطلقت قدماى انطلاقا ، لقد قدرت الآلهة على الهجرة ، ثم قدرت لى العودة ، وهأنذا أتزلف إلى جلالتك مطاطىء الرأس لعلك تعفو عنى ، وتتجاوز عن سيئاتى . ولا على الإنسان أن يعود إلى وطنه ، فما مقامى فى هذه الغربة كمقامى عندك فى القصر ، أيها الملك العظيم الذى نشر الآلهة رع رهبتك وجبروتك على كل البلاد ، فكل سكانها ينظرون إليك خشية وهيبة بقلوب مضطربة وعيون زائغة .

سأترك كل ما فى يدىّ هنا طوعا لأمرك الكريم لمن له الأمر بعدى ، غير أنى أطمع أن تأذن لرسولك إلىّ أن يختار ما يروق له هنا . وسأبقى مدينا لك وحدك بحياتى التى أنقذتها من العذاب ، وأدعو رع وحورس وهاتور ومنث — وأنت صفيها ومختارها — أن تصفيك الحياة الراضية الخالدة » .

وأثقت مهرجانا عاما نخما فى إقليم (باع) ثم دفعت إلى أبنائى كل ما تحت يدى من أموال وأنعام ، وخلفنى ابنى الأكبر فى زعامة القبائل فاختص بكل مالى من الحدائق والبساتين والحقول والأنعام . وما فرغت من ذلك حتى وليت وجهى شطر الجنوب فى عصبة من رجال الساتى (البدو) كانت مهمتهم حفرتى فى الطريق طوال رحلتى إلى مصر ، ومضينا نغذّ السير حتى بلغنا طريق حورس قرب الفرع الشرقى للنيل حيث أقيم هناك حصن لدفع الغارات عن الحدود ، فاستقبلنا حاكم الإقليم بحفاوة ، وبعث رسولا إلى البلاط يخبر الملك بمقدمنا ، وما هى إلا أيام قضيناها هنـاك فى طريق حورس حتى بعث الملك إلينا كبير المشرفين على مزارعه فى أسطول من السفن تحمل الإتاوات الملكية إلى العصبة التى تولت حفرتى فى أثناء الطريق من رجال الساتى ، فأذنت فيهم ، وسلمت كلا منهم ما يستحق منها وبلغتهم تحيات الملك وشكره ورضاه ، فحملونى تحياتهم إليه وتقديرهم لنعمته ، وكروا إلى بلادهم راجعين .

أما أنا فقد تابعت رحلتى حتى بلغت ثتوى (العاصمة) وعند تنفس الصبح وافانى رسل الملك بدعوتى إلى المثول بين يديه فسرت معهم حتى بلغنا القصر ، فصافحت أرضه ، وفى فنائه وجدت أولاد الملك متهيئين لاستقبالى ، ثم اقتادنى رجال الحاشية إلى حجرة الملك الذهبية الفاخرة ، وفيها وجدت جلالته مستويا على عرشه الفخم ، فسجدت بين يديه ، وعندئذ أحسست بالعبرات ترين على عينى ، وبالانحلال يشل أعضائى فيمنعها الحركة ، وشعرت لى أن قلبى زال عن مكانه ، وكانت قد حالت بى الحال حتى لم يعرفنى جلالته ، فأشفق علىّ ، وأمر رجال الحاشية أن يقيمونى وتحدث إلىّ برفق ولطف ، ليسرّى عنى ما ألمّ بى من الدهشة ويطلق لسانى مما عقله من الاستغراب ، فأحسست بالحياة تعود إلىّ بعد الموت ، وبالنطق يعود إلى لسانى بعد الحصر ، وبدأت أعى ما حولى وأتأهب لفهم ما يلقى إلىّ .

قال لى جلالته : « هأنتذا أخيرا فى القصر بعد أن جُبت خلال القفار ، وتعرّست بالأسفار النائية ، فقد مسّك الضر ، ونال منك الوهن ، وصرت شيخا ضعيفا حتى ليعسر تخيط جثتك ، ماذا أنت ؟ وفيم وجومك ؟ أهو الخوف قد عقد لسانك وحصره عن الكلام ؟ » .

فاستجمعت قواى ، وتحاملت على نفسى ، وبادرت جلالته قائلا : « ومم الخوف يا مولاى ؟ إننى لم أسمع من جلالتك ما أخشاه ! إنما أنا إنسان ضعيف ، لا تؤيده قوة علوية تدفع عنه ما يوحى بحضرتك من رهبة فى قلبه ، وهأنذا أمامك ، وحياتى منك وإليك ، وقد وضعت حياتى كلها بين يديك » .

وما هى إلا لحظة حتى دخلت الملكة والأميرات ، وشاء جلالته أن يتبسط معى ، فقال مداعبا : « هذا سينوحيت قد أقبل كأنه أحد رجال العامو (بدو آسيا) ! » .

فتجاهلتنى الملكة والأميرات ، وهتفن معا : « ما هذا سينوحيت أيها الملك ! » .

فأجاب : « بل هو سينوحيت نفسه » .

ابتهجت الملكة والأميرات بمقدمى ، وبادرن إلى جناحهن فى القصر ، ومرعان ما عدن وقد تقلدن القلائد ، وانتطقن المناطق ، وتهيأن بآلات الرقص ، وطفقن يرقصن وينشدن هذا النشيد :

جادكَ[1] الأربابُ بالخير العميم ... أيها الملك وأصفوكَ[2] الخلودا
وأحاطوكَ بآياتِ النعيمْ ... وحبَوْا[2] عهدكَ عزاً وسعودا
ورعا مَسراكَ أربابُ النجومْ ... أين أبحرت هبوطا وصُعودا
جامعَ التاجين فى تاجٍ يقومْ ... حوله الثعبانُ وضّاء فريدَا
فوق رأسٍ لك جبارٍ حكيمْ ... لم يزل فى كلّ ما يمضى سديدا[3]

* * *

قد أزلت البوسَ عن مصرَ فزالاَ ... وغدت أقدارُها فى راحتيك
دان قطراها جنوبا وشمالاَ ... لك، واستخذى[4] أعاديها لديك
كل من فيها — إذا شاء سؤالا — ... لا يرى من ملجإ إلا إليك
حيث ضاق الناسُ بالعيش احتمالا ... لم يكن معتمدٌ إلا عليك
دمت للخائف والعانى مُنالا[5] ... تبذل النعمى وتُرجى من يديك

* * *

قد حباك الحكمَ والبأسَ الإلـه ... فأزل خوفك عن هذا المريبْ
ويحَ سينوحيتَ قد طال أذاه ... فحياه من الخوف كئيبْ[6]
فر من مصر بلا ذنب جناه ... وهو المولود فيها والرّبيبْ
خوفه بأسَك منها قد نفاه ... فاتقى والخوف يغرى بالذنوبْ
فاردُد المجدَ إليه والحياه ... إنه فينا ومنا لقريبْ

وما انتهى الرقص والنشيد حتى قال جلالة الملك « ياسينوحيت لا تغرب عليك ، فلن يصيبك ما تكره ، ولن يحيق بك سوء وليهدأ قلبك ، ويفرخ روعك ، إنك منذ الآن من رجال حاشيتى بل صفي من بين جميع النبلاء ، فانطلق إلى القصر الذى اختصصناك به ، ثم عد إلينا فى البزة التى تليق بك » .

وأمر الملك رجاله أن يذهبوا بى إلى خزائنه لآخذ ما أشاء من نفائسها ، وخرجت مع الأميرات وأيديهن فى يدىّ ، حتى بلغنا الباب العظيم ، ثم حللت قصرا من قصور الأمراء أهداه إلىّ الملك ، وقد حُملت إلىّ فيه خيرات كثيرة من القصر الملكى الأبيض ، وجاءتنى نفائس من الحلل الملكية والعطور التى يصطفيها الملك .

وقد وجدت قصرى نظما وأثاثه فاخرا ، ورأيت له جنة ذات فواكه وأشجار ، وفيه كثير من الأتباع والخدم الذين أعدوا لخدمتى ، وما كدت أحل بقصرى حتى انتزعوا ثيابى الحقيرة ، وألبسونى حلة بيضاء فاخرة من الكتان ، ورشوا علىّ من أجود عطور مصر وأطيبها ، بعد أن أزالوا لحيتى وقصوا شعرى ونسقوه ثم قذفوا بثيابى القديمة إلى عرض الصحراء .

ونمت هناك على فرش وثيرة ، فتذكرت أيامى بالرمل وأهله وما آل إليه حالى من نعمة فى هذا القصر الفخم ، بعد أن صرت فى عداد النبلاء ، وعندئذ أحسست بالشباب يعود إلى بكل مزاياه .

أقمت بقصرى منعما ، وكان الطعام يحمل إلىّ ثلاث مرات أو أربعا من القصر كل يوم ، وكانت الأسرة الملكية تغمرنى بإناواتها على الدوام ، ووهب لى الملك كل ما أمام قصرى من الحقول والبساتين مما لا يهبه إلا لرئيس ديوانه .

ومع كل هذه النعم التى أضفاها الملك على لم يغفل عن أن يفى بوعده الخاص بمدفنى ، فقد أمر جلالته بأن يشاد لى هرم من الرخام الناصع ، فوضع تصميمه كبير المهندسين فى القصر ، وشيده كبير البنائين فيه كأتقن وأجمل ما شيد فى حياته ، وقد حفر قبرى تحته فى صخرة ، وبعد أن تم الهرم قام رئيس النقاشين نقشه بنقشه وزخرفته ، وهكذا حظيت بما لا يطمع فى الحظوة به من كان مثلى تفاهة ورفة حال ؛ ولست أرجو إلا أن أقضى ما بقى من عمرى مستمتعا بجوار مولاى بما أنا فيه من فضله وبره ، حتى أفارق الحياة ، فأنقل إلى مدفنى .

محمد خليفة التونسى

(١) جادك : أمطرك .
(٢) أصفوك وحبوك : منحوك دون غيرك .
(٣) سديدا : على صواب .
(٤) استخذى : ذل وخضع .
(٥) نُمالا : ملجأ ومعينا .
(٦) كئيب عابس .

شعاب قلب

دروس نفسانية تحليلية

صور من صميم الحياة

تحايل فصصى على ذهن القارئ

عرض مشوق مرغب

بقلم

حبيب الزحلاوى

يطلب من إدارة الرسالة الثمن ١٥ عدا البريد

صادر بافتتاح نسختك من كتاب :

دفاع عن البلاغة

للأستاذ

احمد حسن الزيات

وقد زيدت عليه فصول لم تنشر

يطلب من إدارة الرسالة ومن المكاتب الشهيرة

وثمنه ١٥ قرشاً عدا أجرة البريد

سكك حديد وتلغرافات وتليفونات الحكومة المصرية

نشر الاعلانات فى الرسائل البرقية

إن الإعلان فى الرسائل البرقية المتداولة بين سكان القطر المصرى بأجمعه هو دعاية هامة واسعة النطاق قد هيأتها المصلحة للعملن الذى يرمى إلى رواج أعماله وللتاجر الذى يبغى التوسع فى تجارته وقد راعت المصلحة أن تكون أجور النشر فى هذه الرسائل زهيدة وفى متناول الجمهور فجعلت كل مائة ألف إعلان بثلاثين جنيها مصرياً وكل ربع مليون بسبعين جنيها وكل نصف مليون بمائة وعشرين جنيها فضلا عن تخفيض معين فى المائة إذا بلغ المراد نشره مليوناً أو أكثر من الإعلانات .

إنتهزوا هذه الفرصة ولا يفوتنكم أن تحجزوا من الآن القدر اللازم لكم من هذه الرسائل

ولزيادة الإيضاح إتصلوا بقسم النشر والإعلانات

بالإدارة العامة — بمحطة مصر

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — هابدية)